نقلة اجتماعية

لم يكن بين الرافعي وقرائه صلةٌ ما قبل أن يبدأ عمله في الرسالة ، ولم تكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد ، إلا طائفة تربطه بهم صلات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه ؛ فلما اتصلت أسبابه بالرسالة ، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة ، حتى بلغ ما يصل إليه منها في اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد . وأستطيع أن أقول غير مبالغ : إن الرافعي قد عرف من هذه الرسائل عالَما لم يكن له به عهد ، وانتقل بهـا نقلة اجتماعية كان لها أثر بليغ في حياته وتفكيره وأدبه . وإذا كان مؤرخو الأدب قد اصطلحوا على وجوب دراسة البيئة التي يعيش فيها الأديب والتطورات الاجتماعية التي أثرت فيه ، فإن مما لا شك فيه أن الحقبة التي كان الرافعي يكتب فيها للرسالة — كانت تطوّراً جديداً في حياته الاجتماعية نقله إلى عالَم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقظ الفكر وتجدّد الحياة . وقد عاش الرافعي حياته بعيداً عن الناس لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته ، فكان منهم كالذي يتكلم في (الراديو) يسمعون عنه ولا يسمع منهم ، وليس له ما يستمد منه الوحي والإلهام إلا ما يجيش به نفسه ويختلج في وجدانه ، غير متأثر في عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المغلقة عليه

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس ، وكان له من علّته سبب يباعد بينه وبينهم ؛ فمن ذلك كان يسرّه ويرضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين ليستمع إليهم ويفيد من تجاربهم ، ويُحصّل من علم الحياة وشئون الناس ما لم يكن يعلم ...

ثم بدأ يكتب للرسالة فعرفته طائفة لم تكن تعرفه ، وتذوّق أدبه من لم يكن يسيغه ؛ وكانت الموضوعات التي يتناولها جديدة على قرائها ، وجدوا فيها شيئاً يعبر عن شيء في نفوسهم ؛ فأخذت رسائل القراء تنثال عليه ، فانفتح له الباب إلى دنيا واسعة ، عرف فيها ما لم يكن يعرف ، ورأى ما لم يكن يرى ، واطلع على خفيّات من شئون الناس كان له منها عِلم جديد ... فكان من ذلك كمن عاش حياته بين أربعة جدران : لا يسمع إلا صوته ، ولا يرى إلا نفسه ؛ ثم انفتح له الباب فخرج إلى زحمة الناس ، فانتقل من جو إلى جو ، ومن حياة إلى حياة ...

هي نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها في الرافعي وأدبه ، وإن لم يفارق بيئته ومنزله وأهله .

والآن وقد وصلت إلى جِلاء هذا المعنى كما شاهدته وعاينت أثره ، فإني أتحدث عن ضرب من هذه الرسائل التي كانت ترد إلى الرافعي من قرائه ، ليعرف الباحث إلى أي حد تأثر الرافعي بها ، وأيّ المعاني ألهمته وقدحت زناد فكره ؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بيني وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التي خلّفها لتتم لي بها دراسة التاريخ ، فحسبي ما أقرأني الرافعي منها في أيام صحبته ، وما اطلعت عليه بنفسي من بعد ...

* * *

نستطيع أن نردّ الرسائل التي كانت ترد على الرافعي إلى أنواع ثلاثة :

١ — رسائل الإعجاب والثناء .

٢ — رسائل النقد والملاحظة .

٣ — رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى .

أما النوعان الأولان فليس يعنينا منهما شيء كثير ، وحسبي الإشارة إليهما ؛ على أنه ليس يفوتني هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد إلى الرافعي من رسائل الإعجاب ، كان عن مقالاته في الزواج ؛ وكان أكثر هذه الرسائل من الشبان والفتيات ، وقلما كانت تخلو رسالة من هؤلاء أو هؤلاء ، من شكوى صاحبها

obeikandl.com

أو صاحبتها وتفصيل حاله . وأطرف هذه الرسائل هي رسالة من آنسة أديبة كتبت إلى الرافعي تسأله أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها — وقد سمّته في رسالتها — يعيب عليه أن يعضل ابنته ويرد الخطّاب عن بابه حرصاً على التقاليد ...

... ثم رسالة من (مأذون شرعي) يحصي فيها للرافعي بعض ما مر عليه من أسباب الطلاق في الأسر المصرية ، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالية ليست من الدين ولا من المدنية ، وفي هذه (الإحصائية) الطريفة قصص خليقة بأن تنشر لو وجدت من يحكيها على أسلوب فني يكسبها معنى القصة .

وأعجب ما قرأت من رسائل النوع الثاني ، رسالة جاءته بعقب نشره مقالة « الأجنبية » عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض غلافها لم يجد فيها إلا صفحات ممزقة من عدد (الرسالة) الذي نشرت فيه القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر :

سيدي الأستاذ :

إن كان لا بد من رد فهذا هو خير رد ، وإن كان لا بد من كلمة فكلمتنا إليك هي تلك الكلمة التي ختمت بها هذا الكلام المردود إليك « **مصري** »

***

ومن النوع الثالث من هذه الرسائل ، كان استمداد الرافعي ووحيه ودنياه الجديدة ، وإلى القراء نماذج مختلفة من هذه الرسائل :

١ — هذه رسالة فتى في العشرين ، يكتب إلى الرافعي من الأسكندرية يقول :

« أستاذي الكبير

« ليس لي الآن إلا ربي وأنت يا أستاذي ، وإن من حقك علي أن أسألك حق عليك وقد هداني الله إليك .

« ... قرأت وتدارست ما كتبتَه عن الانتحار ، فماذا تقول في امرىء علم عمن الجنة تحت أقدامها أنها فسقت وزلّت . فهو يتحين الفرصة ليقتلها . إني أبكي يا أستاذي إذ أعيد هذا القول ، أبكي دما . لي أخوة وأنا أكبرهم ، ولا أخاف

إلا أن لى أختا . وأبى — غفر الله له — ليس له ما يكون للرجل من معانى الرجولة ليضمن ألا يكون فى بيته شىء مما قد كان ...

« الشك يساورنى منذ أكثر من عامين : واليوم فار التنور ، إذا سمعت أنها حبلى . ووقع فى يدى ما ملأنى يقينا بتصديق إثمها ؛ ولقد هممت أن أفعل مالا يفعل ، وأنا أخشى ألا يتداركنى حكمك .

« ... ماذا تقول ياأستاذى ؟ أنا الصابر أبدا كاد الصبر يتلاشى من نفسى ، أنا المطمئن أبدا كاد أمرى يضيع من يدى . أنا كالمجنون لا يبقينى شبه عاقل إلا أنت ، فماذا تقول ياأستاذى وبماذا تحكم ؟ يكتبها الله لك فتداركنى برأيك ...

« ولك منى شكر من يسأل الله ويسعى إلى أن يكون بنفسه وحياته من حسنات تربيتك ، وأن يكون فى اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم ...

« ومعذرة لى من لدنك إن أغفلت الآن إسمى »

فى ١٩٣٥/٥/١٤

٢ — وهذه معلمة فى إحدى مدارس الحكومة ، حامت حولها ريبة فوقفتها وزارة المعارف حتى تحقق أمرها ، فكتبت إلى الرافعى تسأله أن يعينها بجاهه حتى تعود إلى عملها الذى تعول منه أبويها ؛ فيشفق عليها الرافعى ويسعى سعيه لبراءتها ... وعادت إلى عملها ؛ وحفظت الجميل للرافعى ، فكانت تكتب إليه كل أسبوع رسالة تبثه خواطرها وتصف له من أحوالها وما تعمل ؛ وتكثر رسائلها إلى الرافعى حتى يزول الحجاب بينهما ، فتصرح له بما لا تصرح فتاة ، ويئول أمرها فى النهاية أن تكتب إلى الرافعى بأنها عاشقة ... وأن معشوقها الصغير — التلميذ فى إحدى المدارس الصناعية بالقاهرة — لا يعلم ما تكن له ! هى تلقاه ، وتماشيه ، وتخلو به خلوات « بريئة » ! ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها ، وتأكلها النار فى صمت ... ! وتقول فى رسالتها إلى الرافعى :

« ... فدبرنى ياسيدى فى أمرى ؛ قلبى يحس أنه يحبنى ، لقد قالتها لى عيناه ، ولكنه لم يتحدث إلى ، ولست أجد فى نفسى القدرة على التصريح له ... »

وتتوالى رسائلها إلى الرافعى تصف له ما تلاقى من الوجد بحبيبها الذى تكبره بسنوات ، ويقرأ الرافعى رسائلها فيبتسم ، ويتناول قلمه الأزرق فيثوِّر فيها علامات يشير بها إلى مواضع وفِقَر تلهمه معانى جديدة وفكراً جديداً ؛ ويشتط الحب بالمعلمة العاشقة حتى تنظم الشعر ، فتبعث إلى الرافعى بقصائدها ليرى رأيه فيها ...

بين يدىّ الساعة آخر رسالة من رسائلها إلى الرافعى . بعثت بها إليه قبل منعاه بقليل . ليت شعرى كيف انتهت قصة هذا الحب ؟

٣ — وهذه رسالة من (حلب) يدهش كاتبها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى صادق الرافعى مطربشاً حليق اللحية أنيق الثياب ، فيكتب إليه :

« ... لقد رأيت رسمك يا مولاى فتأملته ... فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظ . فهل لك يا مولاى فى مجاراة المدنية ومماشاة الحضارة رأى دعاك إلى هذا المظهر الأنيق ... ؟ »

٤ — وتلك رسالة من (دمشق) وقع كاتبها فى هوى مغنية مشهورة ، يحسن بها الظن إحساناً يمثلها لعينيه مَلَكا أنثى ! لا يترك مجلساً من مجالس غنائها ، ولا يفكر فى خلوته إلا فيها ... ثم يأتيه النبأ أنها قد سُمِّيتْ على رجل من ذوى اليسار والنعمة ، وأنها موشكة أن تصير له زوجة ، فيطير به هذا النبأ ويؤلمه أيّما إيلام ؛ فيكتب إلى الرافعى يقول :

« ... إن خطيبها على غناه رجل فاسد الخلق ، متقلب القلب ، دنس الذيل ؛ وأنا على يقين أنها ستشقى به وقد خفيت عنها حقيقته . وأنا أحبها وأشفق عليها وأتمنى لها السعادة ...

« هل يجب على أن أقف وقفة المحذِّر بإقناعها بالعدول عن هذا الزواج الذى لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة ، أو الزم الصمت وأدع الأمور تجرى فى مجاريها وأقطع علائق معها فأرد لها صورها ورسائلها احتراماً لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأدفن ذلك الحب لها فى ركن من أركان قلبى ؟ »

٥ — وذلك طالب فى الجامعة ، له دين وخلق ومروءة ، بلغ مبلغ الرجال .

وفار دم الشباب فى عروقه ، فتسلطت عليه غرائزه، تغالبه شهواته فلا يكاد يغلبها، ولا يجد له سلطاناً على نفسه أو وسيلة لقمع شهواته إلا أن يحبس نفسه أياماً فى غرفته الموحشة ، ومع ذلك لا تزال (المرأة) تتخايل له بزينتها فى خلوته وفى جماعته ، فليس له فكر إلا فى المرأة ، وإنه ليخشى الله ، وما به قدرة على الزواج ، ولقد جرب الصوم فما أجدى عليه ، وقد أوشك أن يفقد نفسه بين شهوات تتجاذبه ودين يأبى عليه ... فماذا يفعل ؟

٦ — وهـذه فتاة متعلمة ، تعيش بين أبيها وزوج أبيها فى هم لا يطاق ، كل سلوتها فى حياتها أن تقرأ ، وهى لا تحسن عملاً ولا تجد لذة فى عمل غير القراءة ، ولـكنها تنكر موضعها بين أبيها وزوجه ، إنهما ينكران عليها كل شىء مما تراه هى من زينتها بين الفتيات ، فعلمها حذلقة ، وآراؤها فاسفة فارغة ، ومطالعاتها عبث ولهو وسوء خلق ، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرياء وأنفة ! وتمضى السنون وهى فى هـذا العذاب من دار أبيها ، فلا هى تستطيع أن تحمل أباها وزوجه على رأيها فى الحياة ولا هى تستطيع أن تنزل إليهما ، والمنقِذ الذى تنتظر الخلاص على يديه من هذا العذاب لم يطرق بابها بعد ، ولو أنه طرق بابها لأشاحت عنه معرضة فى وجل ، لأنها تسىء الظن بكل الرجال . فماذا تفعل ؟

٧ — وهذا فتى مثالىّ يحسن الظن بالأيام ولـكن الأيام تخلفه موعده : أحب فتاة من أهله وأحبته وتواعدا على الزواج ، ولـكن أهلها زوجوها من غيره .

والتمس الوظيفة التى يؤمل أن يصل إليها بعد تخرجه ، فنالها ولـكنه وجدها غُلاً فى عنقه وكامة على فمه

وطلب الزلفى إلى الله بالإحسان إلى الناس فبادلوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء

وكلما غرس زهرة هبت عليها أعاصير الحياة فاقتلعتها وألقتها فى مواطئ النعال

وبرم بالحياة وضاقت به الدنيا وما يزال فى باكر الشباب ... فماذا يصنع ؟

٨ — وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين ، يخاف الله ويخشى عذابه : أحب فتاة من جيرته حباً (عُذرياً) وأحبته ، وبرّح بهما الحب حتى

ما يطيقان أن يمضى يوم دون أن يلتقيا ، ولقيتْه ذات مساء فى خلوة بعيدين عن أعين الرقباء ، وما أكثر ما التقيا فى خلوة ، ولكن الشيطان صحبهما هذه المرة إلى خلوتهما ... ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إرادة أو يكون له ...

... ولما فاءت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يبكى ! وكان فى نيته أن يتزوجها حين ينتهى من دراسته بعد سنتين أو ثلاث ، وكان صادقاً فى نيته ، وكانت الفتاة مؤمنة بصدقه ، ولكنها لم تُطق الانتظار حتى تمضى السنوات الثلاث ولم تطق أن تراه بعد ؛ وجاءه النبأ بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة ...

وعرف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعاً كيف ماتت ... ومنذ ذلك اليوم تلاحقه صورتها فى نومه وفى يقظته ؛ ومضت سنتان منذ وقعت الفاجعة ولكنه ما يزال يذكرها كأنها كانت بالأمس ، وكتب إلى الرافعى يقول فى رسالته :

« ... إننى أنا الذى قتلتها ، إن دمها على رأسى ؛ لقد ماتت ولم يعلم بسرها أحد غيرى وهذا أشد ما يؤلمنى ، ولقد احتملت بصبر وثبات كل ما نالنى فى هاتين السنتين من تأنيب الضمير وعذاب القلب ، ولكنى اليوم أحس بأن صبرى قد انتهى ولم يبق لى قوة على الاحتمال أكثر مما احتملت ... فماذا أفعل ... ؟ »

ألوان وصور ، وملائكة وشياطين ، ونفوس تتعذب ، وقلوب تحترق ، وأنات وابتسامات ، ودنيا لم يكن للرافعى بها عهد ، ولم تكن تخطر له على بال .

* * *

وثمة لون آخر من الرسائل :

... المحامي الشاعر الأستاذ ابراهيم ... شاب له خلق ودين، وفيه اعتزاز بالعربية والإسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعى وينتصر له ، ويتتبع بشوق وشغف كل ما ينشر من كتب ومقالات . ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ، ويراه صاحب مذهب فى الشعر ورأى فى الأدب جديراً بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه . وليس عجيباً — فيما أظن — أن يجتمع الرأى لأديب من الأدباء على محبة الرافعى والعقاد فى وقت معاً ، كما أنه ليس عجيباً أن يتمادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا

obeikandl.com

ما دام لكل منهما فى الأدب طريق ومذهب ؛ ولن يمنع ما بينهما من العداوة ، أو من الصفاء ، أن يكون لكل منهما قراؤه المعجبون به ، أو يكون لهما قراء مشتركون يعجبون بما ينشىء كل منهما فى فنون الأدب ؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارئ بالكاتب الذى يؤثره إلى درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ، ولا يعترف لغيره بأن يكون له مكان بين أهل الأدب .

على أن شأن صاحبنا المحامى الشاعر الأستاذ ابراهيم مع الرافعى والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعى ويؤثره ؛ ويعجب به إعجاباً يبلغ درجة التعصب ؛ وإنه يحب العقاد كذلك، ويعجب به ، ويتعصب له ... لكل منهما فى نفسه مكان لا يتسع إلا له ، ولا يزاحمه فيه خصمه ؛ ولكنه يحبهما معاً ، ويتعصب لهما معاً !

رأيان يتواثبان ، وشخصيتان تتناحران ، وإسراف فى التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبيه اللذين يؤثر كلاًّ منهما بالحب والإعجاب والأستاذية ؟

صورة طريفة وقعتُ عليها فيما وقعتُ بين رسائل الرافعى !

هذه رسالة من الأستاذ إبراهيم إلى الرافعى يقول فيها[1] :

« سيدى ، إننى أحبك ، وأعجب بك ، وأتعصب لك ، ولكن موقفك من العقاد يا سيدى ... ليت شعرى لماذا تتخاصمان ؟ ... لقد كنت على حق ... ولكن العقاد على حق ... هل تأذن لى أن أكون رسول السلام بينكما ؟ »

ثم لا تمضى أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعى رسالته الثانية : « سعذرة . إنك لتتجنى على العقاد تجنيا ظالما ، فما لك وجه من الحق فى عدائه والحملة عليه . لقد عقمت العربية فلم تنجب غير العقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير فى نفسى ، كبير جداً ، وإنى لأقلب تاريخ العربية بين يدىّ فلا أجد غير الرافعى ... أنت ... والعقاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

(١) ليست الرسائل تحت يدي في اللحظة التي أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجمتها فى نفسى كما قرأتها منذ قريب

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامى الشاعر بضع رسائل بين ما خلف الرافعى من أوراق ، تملأ النفس عجبا ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعى من رسائله ، رسالتان ، كتب إحداهما فى المساء ، وكتب الثانية فى صباح اليوم التالى ، ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا فى الطريق لتضاربا بالأكفّ ... !

على أن الرافعى مع ذلك كان يرد على رسائله ! وددت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعى إليه(٢) !

* * *

والآنسة الأديبة (ف . ز) معلمة فى إحدى مدارس الحكومة ، كان أبوها زميلاً للرافعى فى محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود ، فلما مات لم تنس ابنتُه صديقَ أبيها ، فكانت تستعينه فى بعض شئونها ، ومن ثمة نشأت بينهما مودة ، فكانت تراسله ويراسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد فى شئون وشئون .

صحبتُه إلى زيارتها مرة فى ليلة من ليالى الشتاء ، مع الصديقين كامل حبيب وسعيد الرافعى ؛ فلقيناها مع بعض صديقاتها ، وكانت جلسة طالت ساعات ، أعتقد أن الرافعى قد أفاد منها بعض معانيه فى قصة « القلب المسكين ! »

* * *

... وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلات عجيبة من الود ؛ فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير ؛ وجلس على « كرسى الاعتراف » فترة غير قصيرة من حياته تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل إليها من رحل وطوّفَ وكان له فى كل دار أذن وعلى كل باب رقيب عتيد ! ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الثقة العجيبة التى ظفر بها الرافعى من قرائه ؛ ولكنى

---

(٢) لما نشرت هذا الفصل فى مجلة الرسالة ، بعث إلى المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم برسالة ، فيها عتب وفيها أدب ؛ وفيها إلى هذين حديث لا أدرى أيقصد به أن يثبت هذه الرواية أو ينفيها؟ ثم عنّفنى بنشر رسائل الرافعى إليه ، على شرط أن تنشر إلى جانبها رسائله ، ولقد كان يسرنى أن أعرف بماذا رد الرافعى ، ولكن الوفاء بشرطه ليس لى به سلطان ؛ وإنه ليستطيع أن ينشر ما يشاء حيث يشاء !

أستطيع أن أن أجزم بأنه كان أهلا لهذه الثقة ؛ فما أعرف أنه باح بسرٍّ أحد فسماه أو عرَّف به ، وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيرى ، إلا قليلا من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجرّه إليه بعض الحديث فى موضوعها ؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عنى — وما كان بينى وبينه حجاب أو سرّ — فما عرفت خبرها إلا بعد موته . ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنوا إلىّ ؛ فستظل أسرارهم — فى يدى — مصونة عن عيون الفضوليين ، فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعونى الواجب لجلاء بعض الحقائق فى هذا التاريخ .

وكان له مراسلون دائمون ... يجدون الكتابة إليه جزءًا من نظام حياتهم ، فلا تنقطع رسائلهم عنه ، ولا يخفى عليه شىء من تطوّرات حياتهم ، وقد أكسبهم طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأنس والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى صديق عرفوه وجرَّبوه وعايشوه طائفةً من حياتهم ؛ وإن القارئ ليلمح فى هذا النوع من الرسائل الدَّورية التى كان يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء ، مقدار ما أثر الرافعى فى حياتهم منذ بدأتْ صلتهم به ، فتطورت بهم الحياة تطورات عجيبة ؛ وأدَّى الرافعى إليهم دَينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم من الأثر فى أدبه وفى حياته الاجتماعية . وإنى لأضرب مثلاً لواحدة من هؤلاء الأصدقاء :

هى فتاة من أسرة كريمة فى دمشق ، نشأت فى بيت عز وغنى وجاه ، وهى كبرى ثلاثٍ نشأن نشأة يفاخرن بها الأتراب ؛ ثم تقلبت بهن الحياة فإذا هن بعد الغنى والجاه ناسٌ من الناس ، واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعول أسرتها ، وكان لها من ثقافتها وتربيتها مُعينٌ ساعدها دون أختيها فى ميدان الجهاد ؛ وعلى أنها كانت أجملَ الثلاث وأَولاهن بالاستقرار فى بيت الزوج الكريم ، فقد سبقتها أختاها إلى الرفاء والبنين والبنات وظلّتْ هى . . . وما كان ذلك لعيب فيها ، ولكنه سرٌّ لم يلبث أن انكشف لعينيها : لقد كانت هى وحدها ، من دون أختيها ، التى تستطيع أن تعول أسرتها لأنها عاملة . . . وتألمتْ

حين عرفت السرّ ، ولكنها كتمت آلامها وظلت « صابرة » ، ومضت الأيام متتابعة والأمانىّ تخلف موعدها ؛ وتحركت فيها غريزة الأمومة ، ولكنها قمعتها بإرادة وعنف ومضت تصارع الطبيعة وتتحدى القدر بعزيمة لا تلين ؛ ولكنها لم تلبث أن أحسَّت بوادر الهزيمة بعد طول الكفاح فشرعت قلمها وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعى بإمضاء « الصابرة » .

وقرأ الرافعى رسالتها ، ثم قص علىّ خبرها وتندَّت عيناه بالدمع وهو يقول : يا لها من من فتاة باسلة !

وأجابها على رسالتها بتذييل صغير فى حاشية إحدى مقالاته فى الرسالة ... وعادت تكتب وعاد يجيبها ، وتوالت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها عن كل أحد — وكانت كتبتْه إليه فى ورقة منفصلة فى إحدى رسائلها ليمزقه وحده إن عناه أن يحتفظ برسائلها — وكان الرافعى لها كما أرادت : أباً وصديقاً ومرشداً ومشيراً ؛ ولم يأبَ عليها فى بعض رسائله أن يتبسط فى الحديث إليها عن قصة « القلب المسكين » لعلها تجد فيما يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية ... وتعزّتْ المسكينة عن شىء بشىء ، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا ، وبدا فى رسائلها لون جديد لم يكن فى رسالتها الأولى ، وأخذت تكتب إليه عن كل شىء تحس به أو تراه حولها ، وتستشيره فيما جلّ وما هان من شئونها : فى سفرها ، وفى إقامتها وفى رياضتها ، وفى عملها وفى يقظتها ، وفى أحلامها ... فى كل شىء كانت تكتب إليه ، سائلة ومجيبة ، ومخبرة ومستشيرة ، حتى فى صِلاتها مع صديقاتها وأصدقائها ، وفى الخطّاب الذين يطرقون بابها يطلبون يدها ... ولم يكن يضنّ عليها بشىء من الرأى أو المشورة ...

وكان للصابرة جزاء ما صبرت ، وتحققت أمانيها على أكمل ما تحقق أمانى فتاة ، وجاءها العروس الذى لم تكن أحلامها تتطاول إليه فى منامها ، وبرق فى إصبعها خاتم الخطبة ، فانبهرت منه عيون !... لا أريد أن أذكر من صفات خطيبها

حتى لا أعرِّف بها وبه ، فليس من حق أن أكشف ما تريد هى أن يظلّ مستوراً.
لو قلت إن خطيبها كان وزيراً لما بعدْتُ !

واستمرت تكتب للرافعى والرافعى يجيبها ... حتى رسائل خطيبها إليها كانت تبعث بها إلى الرافعى ليشير عليها كيف تجيب ، وحتى برنامجها قبل الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعى ورأيه ...

وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة فى ١٩٣٧/٤/٣ (نعى الرافعى فى ١٩٣٧/٥/١٠) تقول فيها :

« الصديق الكريم ...

« ما أحلى دعوتك يا صديقى وما كان أشدها تأثيراً على نفسى ! لقد شعرت وأنا أقرؤها بسرور عميق ، وتركز فى ذهنى أن هذه الدعوة مقبولة ... ما أسعدنى إذا صرت فى المستقبل أمًّا .

«أعتقد أنك تعرف تماماً أن حنينى للزواج فيما مضى، وتمردى وثورتى على هذه الحياة ، لم تكن إلا لأنى رأيته وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنبهت فىَّ غريزة الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذى ، صرت أكره الأطفال لأنى ليس لى بينهم ولد ؛ وكنت إذ أرى أمًّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير يحز بقلبى ويكاد يقطعه . وكثيراً ما كنت أتشاغل وأشيح بوجهى حتى لا تقع عينى على هذا المنظر . لست حسودة والله ، ولكن شدة إحساسى كانت تجعلنى بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور ، وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع ...

« ... والله يعلم أن ليس لى أى غاية مادية من وراء هذا الزواج ، وليس قصدى منه إلا الحماية والستر ، لأنى مللت ومرض قلبى من فضول الناس ... »

وكانت على نيـة زيارة مصر لتزور الرافعى مع زوجها ، اعترافاً بحقه عليها ، ولكن القدر لم يمهله حتى يحين الموعد ، وحان أجله ولم ينظر بعينيه الفتاة التى تَبَنَّاها على بعد الدار وشغلتْه أحزانُها بضع سنين ، فلما ابتسم لها القدر

وتحققت أحلامها، ناداه أجله قبل أن يشاركها فى ابتسامة الفرح وتهانى المسرة ..!

تقول له فى رسالتها المؤرخة ١٥ / ١ / ١٩٣٧ :

« الصديق الكريم ...

« ... ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة ...! على كل حال إذا وجدت ما يرعبنى فسأختبئ وراء فلان[1] ولا بد أنه يحسن الدفاع عنى . لا ، لا ، سألبس درعاً متينة تقينى (شرّ) هذه المغناطيسية القوية ، ولكنى أخاف يا أستاذى أن يكون الحديد أكثر انجذاباً ، وأكون حينئذ أسأت من حيث أردت الإحسان ... صحيح أننى معجبة ، ولا أزال ، وسأبقى دائماً ، ولكن ألا ترى أن الإعجاب و ... قد يتفقان أحياناً وقد يختلفان ؟ ثم أليس لـ... معان كثيرة وأساليب عديدة ... ؟

« تريد رأيى فى صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيداً فلماذا تريد إحراجى ... ؟

« الجمال ليس مدار بحثنا ، وليس له أهمية قل أو كثر ، ومع ذلك فصاحب القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . اسمع ، سأبدى رأيى . لا لا ، ما بِدّى أقول ، أستحى ...! »

وكانت تعرف من أمره مع (فلانة) ما قص عليها فى رسائله . وفى رسائلها حديث كثير عنها ، وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها ...

وأعتقد أن فى رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض فى قصة الرافعى و (فلانة) ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ؛ فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها فى هذه الرسائل فتهديها إلينا لتتم لنا بهذه الحلقة المفقودةِ سلسلةُ التاريخ ! إنها أديبة وعالمة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها فى هذه

---

(١) خطيبها

الرسائل ، ولها علينا ما تشترط فنُوفيه ، فلعل صوتى أن يبلغ إليها فى مأمنها . ضمن الله لها سعادتها وحقق لها ما بقى !

* * *

هذه قصة فتاة يجد القارئ بين أولها وآخرها أشتاتاً من تاريخ الرافعى ؛ وفيها مثال يبين معنى ما سميته (النقلة الاجتماعية) فى حياة الرافعى بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل . على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعى حظ أىُّ حظ . وقد كان على أن يكتب — بما اجتمع له من فصول هذه القصة — مقالة بعنوان « الصابرة » جمع لها فيما جمع من نثار الأفكار قدراً غير قليل ، وما أخَّره عن كتابتها إلى أن وافاه الأجل، إلا انتظار الخاتمة فيما أظن، وإلا شدة احتفاله بهذا الموضوع . وهكذا نجد شدة احتفال الرافعى بموضوع مّما تكون سبباً فى تعويقه عن كتابته أو عن تمامه .

كان يحتفل بكتابه « أسرار الإعجاز » فلم يتم ، وبمقالتى « الزبال الفيلسوف » و « الصابرة » فلم يكتبهما ؛ ولكن التاريخ لم ينس له .